Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

البحث الصوتي عند ابن جني دراسة صوتية في مقدمة سر صناعة الإعراب في ضوء الدرس الصوتي الحديث

Phonetic research at Ibn Jinni Study in introduction of the book Sirr Sinaat Aliaarab in the light of the modern phonetic study

بن زيان عبد القادر Benzian Abdelkader
جامعة زيان عاشور الجلفة Ziane Achour University Djelfa
abbenzian@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2019-02-05 تاريخ القبول : 2019-03-04

ملخص:

يتناول هذا المقال دراسة وتحليل المباحث الصوتية من خلال مقدمة كتاب سر صناعة الإعراب، وذلك من خلال المباحث الصوتية التي بحثها ابن جني في شقيها الرئيسيين: البحث الفونولوجي والفونتيكي.

تهدف هذه الدراسة إلى بيان وتحليل القضايا الصوتية في هذا المصدر في ضوء ما جاءت به نتائج الدرس الصوتي الحديث الذي تناول دراسة الصوت من جوانب مختلفة، منها دراسة الصوت اللغوي معزولا عن سياقه من جهة، ومن جهة أخرى دراسته ضمن سياقه اللغوي.

كلمات مفتاحية: الصوت اللغوي، الفونتيك، الفونولوجيا، الدرس الصوتي الحديث، ابن جني

ABSTRACT:

This article examines and analyses the phonetic researches through introduction of the book «SIRR SINAAT ALIAARAB» thus through of the study of linguistic voice from the phonetic and phonological side.

This study aims to clarify and analyse the voice issues in this reference in the light of the results of the modern studies that studied on the one hand the voice isolated from the context, on the other hand inside the context.

Keywords: voice linguistic, phonetic, phonology, modern phonetic study, IBN JINNI

1.مقدمة:

نشأ الدرس اللغوي العربي بمعناه الواسع، أو بما يصطلح عليه اليوم الدرس اللساني(Linguistic) ضمن سياقات ثقافية وحضارية وجغرافية مما جعل الفكر العربي يكشف عن خصائص الدرس اللغوي العربي التي تنتمي إلى اللغة العربية ذاتها، فظهر في الفكر اللغوي أعلامه، كالخليل، وسيبويه، والكسائي والفراء، وابن جني، وأحمد ابن فارس، وعبد القاهر الجرجاني، فقد تناولوا دراسة اللغة العربية في مستوياتها اللغوية المختلفة، الصوتية، والصرفية، والتركيبية، والمعجمية والدلالية، وضمن هذا السياق العام نلفي طائفة من هولاء قد عكفت على دراسة اللغة في بعض مستوياتها الأخرى، وهم علماء الأصول الذين احتفلوا بالدرس اللغوي في جانبه التركيبي والدلالي والتداولي، كما أشار إلى ذلك الإمام الجويني مبينا براعة علماء الأصول في البحث اللغوي: « اعتنوا في فنهم بما أغفله أئمة العربية واشتد اعتناؤهم بذكر ما اجتمع فيه إغفال أئمة اللسان وظهور مقصد الشرع»[1]، أما علماء القراءات فقد درسوا الجانب الصوتي درسا دقيقا في جميع مناحيه الصوتية، فضبطوا المسائل الصوتية ضبطا دقيقا يقوم على أحد المرتكزات الهامة، وهو"السماع" أو باصطلاح اللسانيين"الأداء"، ذلك أنهم أشاروا إلى حقيقة الصوت اللغوي من جهتين أساسيتين هما: المخرج والصفة، ودرسوا الصوت اللغوي معزولا عن سياقه اللغوي، وذلك بوصفه وبيان خصائصه، وكذلك درسوه ضمن سياقه اللغوي، أي من خلال ما يطرأ على الصوت من تغييرات تحدث

له بفعل المجاورة، كالمد، والقصر، والإمالة، والإدغام، ونحو ذلك، وقيام البحث الصوتي عندهم يتأسس على هذا المبدأ "**الأداء**" كما أشار إلى ذلك صاحب النشر في القراءات العشر: « وأن الخفي يخل إخلالا يختص بمعرفته علماء القراءة وأئمة الأداء الذين تلقوا من أقوال العلماء وضبطوا عن ألفاظ أهل **الأداء** الذين ترتضى تلاوتهم ويوثق بعربيتهم، ولم يخرجوا عن القواعد الصحيحة والنصوص الصريحة، فأعطوا كل حرف حقه، ونزلوه منزلته وأوصلوه مستحقه من التجويد، والإتقان والترتيل والإحسان»[2]، ومن هذا المنطلق أردنا أن نجلي جوانب من إسهامات ونتائج البحث الصوتي عند أحد أعلام الفكر اللغوي العربي وذلك ضمن رؤية نتائج المحدثين من علماء الأصوات الذين توفرت لديهم و سائل البحث المتقدمة.

2.توصيف كتاب سر صناعة الإعراب:

اشتهر كتاب ابن جني سر صناعة الإعراب بـ "سر الصناعة"، ذلك أن الكتاب يميل إلى الدرس اللغوي بالمفهوم الحديث الذي يتناول اللغة تناولا شاملا، أي يدرس اللغة في مستوياتها المختلفة (الصوتية الصرفية التركيبية)[3].فهو كتاب يقع في جزأين ضمنه مقدمات عامة تطرق فيها إلى المسائل الصوتية كحقيقة الصوت، وكيفية حدوثه، وأقسام الأصوات أصولا وفروعا ما حسن منها وما قبح معللا وجه الحسن فيها وكذلك وجه القبح فيها، تم تتبعها صوتا صوتا مبرزا خاصية كل صوت وما يحدث له من حذف وإبدال، وزيادة، معتمدا في ذلك على كلام العرب، وكلام الله عز وجل، وحديث النبي صلى الله عليه وسلم.

أما منهج ابن جني فقد اعتمد في مؤلفه هذا على ترتيب حروف المعجم التي تتألف منها بنية الكلمة، فقام بتحليلها من زوايا مختلفة، ذلك أنه اعتمد الترتيب الهجائي للأصوات ودراسة خصائصها (الهمزة، الباء ، التاء ، الثاء ...)، أما الجهة الثانية فقد نبه فيها على صفات الأصوات التي يتلبس بها الصوت مفردا نحو: (الجهر، والهمس، الإطباق، والانفتاح، الاستعلاء، والانفتاح) ،أما الجهة الثالثة فقد نبه فيها إلى المسائل الصوتية التي تعرض للصوت اللغوي أثناء التركيب، وهو مبحث صوتي يصطلح عليه في الدرس الصوتي الحديث بالبحث الفونولوجي (phonological research)، أو علم وظائف الأصوات، أو علم الأصوات التشكيلي[4]، وبهذا المعنى نلفي أن ابن جني قد تطرق إلى هذه القضايا الصوتية ممثلة في الإدغام والإمالة، والنقل، والحذف، وغير ذلك مما يمس الصوت اللغوي قي أثناء التركيب.

3.حقيقة الصوت اللغوي عند ابن جني

تطرق ابن جني في التمهيد إلى كيفية حدوث الصوت اللغوي في الجهاز النطقي مبينا حقيقته واعتماده أي " الصوت" على الهواء المندفع من الرئتين، ومن ثم فقد وقف مع المخرج الذي اصطلح عليه "**المقطع**" بالتوصيف الفيزيولوجي الذي يكون معه حبس النَّفَس حبسا جزئيا أو كليا مما يسمح بحدوث الصوامت في اللغة (consonant): « اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا، وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها »[5] ممثلا وشارحا كيف يحدث الصوت اللغوي في الآلة المصوتة وقد مثل لذلك ببعض الصوامت (consonant)، إذ يقول:« ألا ترى أنك تبتدئ الصوت من أقصى حلقك ثم تبلغ به أي المقاطع شئت فتجد له جرسا ما فإن انتقلت عنه راجعا منه أو متجاوزا له ثم قطعت أحسست عند ذلك صدىً غير الصدى الأول، وذلك نحو الكاف فإنك إذا قطعت بها سمعت هنا صدى ما، فإن رجعت إلى القاف سمعت غيره، وإن جزت إلى الجيم سمعت غير ذينك الأولين»[6]، وهذا التفسير الصوتي عند ابن جني نلفيه متطابقا مع نتائج الدرس الصوتي الحديث، فالصوامت عندهم تتميز بتشكل حاجز داخل الآلة المصوتة وتجاوز النَّفس المندفع من الرئتين لهذا الحاجز، إذ نستطيع تصنيف الصوامت تبعا للنقطة التي يتشكل فيها الحاجز (obstacle) وكذلك تبعا لدرجة الانفتاح (Le degré d'aperture) وكذلك تبعا للخصائص التي ترافق الصوت(Le mode d'articulation).[7]

ثم انتقل بعد ذلك إلى بيان الصوائت العربية التي يكون معها جريان النَّفَس دون أن يعترض سبيلها عارض: « فإن اتسع مخرج الحرف حتى لا يقتطع الصوت عن امتداده واستطالته استمر الصوت حتى ينفد فيفضي حسيرا إلى مخرج الهمزة فينقطع بالضرورة عندها إذا لم يجد منقطعا فيما فوقها».[8] والتفسير الصوتي الحديث لهذا الوضع الفيزيولجي الذي تكون مع الصوائت هو أن النَّفَس المندفع من الرئتين يمتد خلال مجراه ويستمر في

الامتداد لا يقطعه شيء ولا يمنع استمراره أي عارض لا ينتهي هذا الهواء إلا بانتهاء نطق الصوت نفسه.[9]

ثم يواصل بيان حقيقة الصوائت في العربية من الناحية الفيزيولوجية واصفا إياها: « والحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة: الألف ثم الياء ثم الواو، وأوسعها وألينها الألف، إلا أن الصوت الذي يجري في الألف مخالف للصوت الذي يجري في الياء، والواو، والصوت الذي يجري في الياء مخالف للصوت الذي يجري في الألف والواو»[10]، وهكذا نجد تفسيرات المحدثين تتفق مع رؤية ابن جني إلى حد ما، وذلك من خلال تفريقهم بين الصوائت والصوامت باعتبار درجة الانفتاح والانغلاق، واعتبار حركة الوترين الصوتيين: «الحبيس صوت لغوي حادث من احتكاك الهواء بنقطة انسداد منطقة من مناطق الجهاز الصوتي، كالباء الحادثة من انسداد بين الشفتين (...) أما الطليق فهو صوت لغوي ناشئ عن اهتزاز الوترين فقط وليس معه انسداد في جزء من أجزاء الجهاز الصوتي، بل يكون هذا الجهاز منفتحا معه يكفي لمرور الهواء من غير أن يلقى في طريقه عقبة ما، ومن هذا النوع أصوات الفتحة، والضمة والكسرة القصار وبناتهن الألف، والواو، والياء الطِوال».[11]

ثم يعمد ابن جني إلى تعليل هذا الاختلاف الصوتي بين هذه الصوائت تعليلا فيزيولوجيا يقوم على شكل الفم، والحلق الذي يتخذ وضعا فيزيولوجيا مباينا في كل صوت: « والعلة في ذلك أنك تجد الفم والحلق في ثلاث الأحوال مختلف الأشكال، أما الألف فتجد الحلق والفم معها منفتحين، غير معترضين على الصوت بضغط أو حصر، وأما الياء فتجد معها الأضراس سُفلا وعُلوا قد اكتنفت جنبتي اللسان وضغطته، وتفاجَّ الحنك عن ظهر اللسان، فجرى الصوت متصعدا هناك، فلأجل تلك الفجوة ما استطال، وأما الواو فتَضُم لها معظم الشفتين، وتدع بينهما بعض الانفراج ليخرج فيه النَّفَس ويتصل الصوت فلما اختلفت أشكال الفم والشفتين مع هذه الأحرف الثلاثة اختلف الصدى المنبعث من الصدر، وذلك قولك في الألف: أا، وفي الياء إي ، وفي الواو أو».[12]

وقد حاول أن يعقد مقارنة بين حدوث الصوت في الآلات الموسيقية وحدوثه في الجهاز الصوتي وقد بين ما يترتب عن حدوث الأصوات المختلفة هنا وحدوثها هناك، إذ يقول: « ولأجل ما ذكرنا من اختلاف الأجراس في حروف المعجم باختلاف مقاطعها التي هي أسباب تَباينِ أصدائها ما شبه بعضهم الحلق والفم بالناي، فإن الصوت يخرج فيه مستطيلا أملس ساذجا، كما يجري الصوت في الألف غفلا بغير صنعة، فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة وراوح بين أنامله اختلفت الأصوات، وسمع لكل صوت منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم باعتماد على جهات مختلفة كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة، ونظير ذلك أيضا وتر العود فإن الضارب إذا ضربه وهو مرسل سمعت له صوتا، فإن حصر آخر الوتر ببعض أصابع يسراه أدى صوتا آخر، فإن أدناها قليلا سمعت غير الاثنين، كذلك كلما أدنى أصبعه من أول الوتر تشكلت لك أصداء مختلفة إلا أن الصوت الذي يؤديه الوتر غفلا غير محصور تجده بالإضافة إلى ما أداه وهو مضغوط محصور أملس مهتزاً، ويختلف ذلك بقدر قوة الوتر وصلابته وضعفه ورخاوته، فالوتر في هذا التمثيل كالحلق والخفقة بالمضراب عليه كأول الصوت من أقصى الحلق وجريان الصوت فيه غفلا غير محصور كجريان الصوت في الألف الساكنة وما يعترضه من الضغط والحصر بالأصابع، كالذي يعرض للصوت في مخارج الحروف من المقاطع، واختلاف الأصوات هناك كاختلافها هنا».[13]

4.الصوائت القصار والطوال:

اعتنى القدماء بأهمية الصوت وتناولوا دراسته من جهات مختلفة، ذلك أن الناظر يلفيهم قد بحثوا جوانب مختلفة منها الكم الزمني الذي يستغرقه الصوت اللغوي، أو بعبارة أخرى طول الصوت اللغوي وقصره، ذلك أن طول الصوت أو قصره يتدخل كما يرى إبراهيم أنيس في الأداء الصحيح للغة: «ولطول الصوت أهمية خاصة في النطق باللغة نطقا صحيحا، فالإسراع بنطق الصوت أو الإبطاء به يترك في لهجة المتكلم أثرا أجنبيا عن اللغة ينفر منها أبناؤها».[14]

إن الملاحظ هو أن الصوائت (vowels) تختلف من لسان إلى آخر من حيث عددها وطرائق تأديتها، إذ تتراوح الصوائت في معظم اللغات من خمسة صوائت إلى سبعة، وتأديتها تتأسس على الانفتاح بما يسمح بمرور النَّفَس دون أن يعترض سبيله عائق وكذلك على وضع اللسان وحركة الشفتين، كالاستدارة،

والانفراج ونحوهما: « من وجهة النظر النطقية اللسان هو العضو الأساسي فهو يتكوم نحو مقدمة التجويف الفموي عند إنتاج الصوائت الأمامية المسماة أيضا بالحَنَكية، وهي: /a/، /ɛ/، /e/ ، /i/ ، ونحو الخلف عند إنتاج الصوائت الخلفية المسماة أيضا باللهوية، وهي: /ɑ/، /ɔ/ ، /o/، /u/، وتكبر المسافة بين سطح اللسان والحَنَك عند الانتقال من /i/ إلى /a/ الأمامي، وينتقل الانقباض من المنطقة اللهوية إلى منطقة الحلق عند الانتقال من /u/ إلى /ɑ/ الخلفي مرورا بـ / o/ و/ɔ/»[15].

وفي هذا السياق نلفي ابن جني قد تطرق إلى بيان خصائص الصوائت الطويلة والقصيرة في العربية ذلك أنه يقف بالتحليل الصوتي لهذه الصوائت من جهة الكم أي طولها وقصرها، ومن جهة الأسباب المفضية إلى التغييرات الصوتية التي تكون سببا مباشراً في طول الصوائت العربية، ابتدأ ابن جني حديثه ببيان عدد صوائت العربية وأنواعها واصطلاحاتها: «اعلم أن الحركات[16] أبعاض حروف المد واللين وهي: الألف، والياء، والواو، فكما أن هذه الحروف ثلاثة، فكذلك الحركات ثلاث، وهي الفتحة والكسرة والضمة فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو، وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة والكسرة الياء الصغيرة، والضمة الواو الصغيرة، وقد كانوا على طريق مستقيمة».[17]

ويواصل ابن جني حديثه عن الصوائت الطوال والأسباب التي تفضي إلى طولها، كالهمز، والإدغام أو باصطلاح القراء السكون الذي يكون سببا في إشباع الصائت طولا يقول ابن جني واصفا الفروق الزمنية التي تستغرقها تأدية كل صائت: «ألا ترى أن الألف والواو والياء اللواتي هن حروف نوامُّ كَوَامل، قد تجدهن في بعض الأحوال أطول وأتم منهن في بعض، وذلك في قولك يخاف وينام ويسير ويطير، ويقوم، ويسوم، فتجد فيهن امتدادا واستطالة ما، فإذا أوقعت بعدهن الهمزة أو الحرف المدغم ازددن طولا وامتدادا وذلك نحو: يشاء ويَداءُ، ويسوء، ويَهوءُ، ويجيء، ويفيء، وتقول مع الإدغام: شابَّة ودابَّة (...) أفلا ترى إلى زيادة المد فيهن بوقوع الهمزة والمدغم بعدهن».[18]

ويزيد المسألة بيانا من خلال بيان العلاقة التي تربط الصوائت القصار بالصوائت الطوال وما يترشح عن ذلك من فروق صوتية ينشأ عنها فروق صرفية تمس بنية الكلمة ومعناها، ومن ثم ينشأ عنها كذلك بنى مقطعية (syllabic structure) تختلف بحسب طول هذه الصوائت وقصرها يقول: «ويدلك على أن الحركات أبعاض لهذه الحرف أنك متى أشبعت واحدة منهن حدث بعدها الحرف الذي هي بعضه وذلك نحو فتحة عين "عَمَر"، فإنك إن أشبعتها حدثت بعدها ألف، فقلت: "عَامر" وكذلك كسرة عين "عِنب" إن أشبعتها نشأت بعدها ياء، وذلك قولك: "عِينَب"، وكذلك ضمة عين "عُمر" لو أشبعتها لأنشأتَ بعدها واوا ساكنة وذلك قولك: "عُومر"، فلولا أن الحركات أبعاض لهذه الحروف وأوائل لها لما تنشأتْ عنها ولا كانت تابعة لها» [19].يكشف هذا النص عن وعي ابن جني بهذه التغيرات الصوتية من جهة الكم، ذلك أن طول الصوت وقصره يتدخل في تغير البنية الصرفية للكلمة فكلمة "خرج" تختلف مقطعيا عن "خارج" فالأولى مؤلفة من ثلاثة مقاطع كلها قصيرة مفتوحة من النوع (cv)[20] أما الثانية فهي مؤلفة من ثلاثة مقاطع، الأول من النوع الطويل المفتوح(cvv) والثاني والثالث من النوع القصير المفتوح(cv)، فصنيع ابن جني يكشف عن العلاقة الوثيقة بين الأصوات والصرف، وفي هذا السياق نلفي تفسيرات المحدثين لتعالق الأصوات مع الصرف، ذلك أن التفاعلات الصوتية تفضي إلى هذا التغير الطارئ عن الأصل: «إن أهم شيء في تصريف الكلمة العربية هو إدراك نظامها المقطعي فالواقع أن هذا النظام هو الذي يفرق بين الاسم والفعل فيها، وحسبك أن تعلم أن مادة الكلمة واحدة في كل من الاسم والفعل ولكن الذي يفرق بينهما هو اختلاف الحركات الذي يؤدي إلى اختلاف النظام المقطعي، وكل تغيير يحدث في الكلمة العربية سوف يكون نتيجة تصادم وضعها الأصلي مع طبيعة النظام المقطعي في اللغة، فليزم تعديلها خضوعا لضرورة النظام ».[21]

وبعد هذا التحليل لهذا المظهر الصوتي يشرع في تعليل ماهية ووظيفته "الحركة" "vowel" في التوليف المقطعي، يقول واصفا محللا هذا المظهر الصوتي: «وإنما سميت هذه الأصوات الناقصة حركات، لأنها تقلق الحرف الذي تقترن به، وتجتذبه نحو الحروف التي هي أبعاضها، فالفتحة تجتذب الحرف نحو الألف، والكسرة تجتذبه نحو الياء، والضمة تجتذبه نحو الواو، ولا يبلغ الناطق بها مدى الحروف التي هي أبعاضها، فإن بلغ بها مداها تكمَّلتْ له الحركات حروفا، أعني ألفا وياء وواواً ».[22]

وفي هذا السياق يواصل بيان الفروق الصوتية بين الحركة والساكن أي باصطلاح المحدثين الصامت والصائت من خلال بيان موطنهما وأيهما هو محل للآخر: « اعلم أن الحروف في الحركة والسكون على ضربين ساكن ومتحرك، فالساكن ما أمكن تحميله الحركات الثلاث نحو كاف بكر، وميم عمرو ألا تراك تقول: بَكَرَ و عَمَرو وبَكِرَ وعَمِرو، وبَكُرَ وعَمُرو، فلما جاز أن تحمِّله الحركات الثلاث علمت أنه قد كان قبلها ساكناً»[23]، ومثل هذا التوصيف نجده عند المحدثين من خلال ضبط وتوجيه مصطلح الحرف إلى الصامت، ومصطلح الحركة إلى الصائت معتمدين في ذلك على حركة الهواء المندفع من الرئتين عبر المسارب المختلفة وعلى أوضاع أعضاء النطق عند مرور النفس، يقول عبد الصبور شاهين: «أما بحثنا فيستعمل وصف "الصوامت " لنوع من الأصوات التي كانت تسمى قديما الحروف فالصوت من هذا النوع صامت في ذاته، وهو متحرك إذا وليته حركة من ضم أو فتح أو كسر، وهو غير متحرك إذا وليه صامت مثله، أو بعبارة أخرى إذا لم تعقبه حركة ».[24]

أما المتحرك فهو الصامت الذي يعقبه صائت، وهو عماد التشكيل المقطعي في اللغة، وهو الذي لا يمكن أن يتحمل أكثر من صائت «والمتحرك هو الذي لا يمكن تحميله أكثر من حركتين، لأن الحركة التي هي فيه قد استغني بكونها فيه عن اجتلابها له، وذلك نحو ميم عُمَر، يمكن أن تحملها الكسرة والضمة فتقول: عُمِر و عُمُر، ولا يمكنك أن تجتلب لها فتحة، لأنها قد كانت في أول اعتبارك إياها مفتوحة، والحرف الواحد لا يتحمل حركتين، لا متفقتين ولا مختلفتين ».[25]

وبعد بيانه لحقيقة الثنائية الصوتية (الصامت والصائت) التي هي قاعدة اللغة وأساسها الذي يأتلف منه الكلام البشري يشرع في تفسير تعالق هذه الثنائية وتجليها في السلسة المنطوقة (speech chain) تفسيرا منطقيا يرى فيه أن الحركة لا تعدو أن تكون في الرتبة قبل الحرف أو معه أو بعد، إذ يقول: «واعلم أن الحركة التي يتحملها الحرف لا تخلو أن تكون في المرتبة قبله أو معه أو بعده، فمحال أن تكون الحركة في المرتبة قبل الحرف، وذلك أن الحرف كالمحل للحركة، وهي كالعرَض فيه، فهي لذلك محتاجة إليه، ولا يجوز وجودها قبل وجوده»[26]، ثم يواصل تفسير هذه الموقعية تفسيراً وظيفيا، أي بحسب خصائص البناء المقطعي في العربية، ذلك أنه لا يمكن أن يحصل الإدغام [27] في حال كون الصائت قبل الصامت، فهو إذ ذاك حائل بين الطاء الأولى والثانية نحو "قطَّع" المضعفة يقول ابن جني: «وأيضا لو كانت الحركة قبل الحرف لما جاز الإدغام في الكلام أصلا، ألا ترى أنك تقول "قطَّع" فتدغم الطاء الأولى في الثانية، ولو كانت حركة الطاء الثانية في الرتبة قبلها، لكانت حاجزة بين الطاء الأولى وبين الطاء الثانية، ولو كان الأمر كذلك لما جاز إدغام الأولى في الثانية، لأن الحركة على هذه المقدمة مرتبتها أن تكون قبل الطاء الثانية بينها وبين الأولى، وإذا حجز بين الحرفين حركة بطل الإدغام فجواز الإدغام في الكلام دلالة على أن الحركة ليست قبل الحرف المتحرك بها»[28]. يعكس توصيف ابن جني لهذه المسألة الصوتية وعيه بخصائص ونظام توليف الأصوات في العربية بعضها مع بعض، ذلك أن علماء الأصوات المحدثين أشاروا إلى هذه الحقيقة الصوتية ضمن باب البحث المقطعي، أي أن البنية المقطعية في اللغة العربية ذات خصائص منها، أن المقطع في اللسان العربي لا يبدأ بصائت مهما يكن موقعه في الكلمة [29]، وبهذا المعنى فإن تفسير علماء الأصوات المحدثين مطابق تماما لرأي ابن جني الذي يرى أن الحركة لا تكون قبل الساكن، فكلمة "قطَّع" مؤلفة من ثلاثة مقاطع على النحو الآتي: /قطْ/ طَ/ عَ/، إذ لا يمكن أن تكون حدود التقطيع على النحو الذي يبدأ فيه بصامت أي: /قَ/طَ/طْ/عَ/

5.الصوامت: يعد مصطلح الصوامت من اصطلاحات المحدثين الذين يرون أن الصوامت (consonant) تتأسس على حركة الوترين الصوتين الذين يكون معهما الجهر والهمس، وحركة الهواء في التجاويف المختلفة مما يحدث معها حبس الهواء حبسا كليا أو جزئيا، ومكان النطق(point of articulation) والأنفية (nasality)، وهذا التوصيف للصوامت نلفيه واضحا في الدرس الصوتي الحديث: «إن المعايير الأساسية لتصنيف الصوامت هي طريقة الجهر (مجهور/غير مجهور)، ودرجة الانقباض (انسدادي، احتكاكي معطش، انسيابي)، وموضع، والأنفية...تتطلب الانسداديات الشفوية (p, t, k, b, d, g) انغلاقا كاملا للقناة الفموية، تصدر الاحتكاكيات (f, s, ʃ, z, ʒ) بواسطة تضييق شديد في منطقة ضيقة إلى حد ما من القناة الصوتية ...يتم إصدار الأنفية (m, n, ɲ) بالطريقة نفسها ولكن القناة الحلقية الأنفية تكون مفتوحة...»[30]. وفي ضوء ما جاءت به نتائج

الدرس الصوتي الحديث تجدر الإشارة إلى أن ابن جني قد حاز قصب السبق في المجال الصوتي، ذلك أن الناظر في كتابه يلفيه قد تطرق لبيان أصوات اللغة العربية بيانا مفصلا، من خلال وقوفه مع صوامت العربية صوتا صوتا بدءا من صوت الهمزة إلى صوت الهاء، فقد وقف مع هذه الأصوات من حيث خصائصها مفردة أي معزولة عن سياقها، وكذلك من حيث خصائصها داخل التركيب، أي من جهة ما يعرض للصوت من أوضاع نطقية مختلفة بسبب المجاورة، فأول مبحث يطالعنا هو ما سماه "باب أسماء الحروف وأجناسها ومخارجها وفروعها المستحسنة وفروعها المستقبحة وذكر خلاف العلماء فيها مستقصىً ومشروحاً " فالمطردة عنده تسعة وعشرون حرفا: (الهمزة والألف، والهاء، والعين، والحاء، والغين، والخاء، والقاف والكاف، والجيم، والشين، والياء، والضاد، واللام، والراء، والنون، والطاء والدال، والتاء، والصاد والزاي، والسين، والظاء، والذال، والثاء، والفاء، والباء، والميم، والواو)[31]. ورتب على ذلك الفروع الستة المستحسنة التي يؤخذ بها في القرآن وفي فصيح الكلام، وهي: (النون الخفيفة، والهمزة المخففة وألف التفخيم، وألف الإمالة والشين التي كالجيم، والصاد التي كالزاي، ثم الفروع الثمانية المستقبحة وهي غير مستحسنة ولا يؤخذ بها في القرآن ولا في الشعر ولا تكاد توجد إلا في لغة ضعيفة مرذولة غير متقبلة.[32]

6.المخارج: وبعد هذا التصور لأصوات العربية أصولا وفروعا، شرع في بيان أحد مرتكزات الصوت اللغوي وهو المخرج (point of articulation)، في باب "ذكر الحروف على مراتبها في الاطراد" [33] مبينا أصول الأصوات العربية وما يتفرع عنها من فروع مستحسنة، وهي ستة أصوات وكذلك الفروع الثمانية غير المستحسنة التي لا تكون في تأدية القرآن الكريم ولا في فصيح الشعر العربي، وإنما هي باصطلاح الدرس الصوتي الحديث تنوعات لهجية محلية لا تدخل في النظام الصوتي العربي المدروس يقول: « واعلم أن هذه الحروف التسعة والعشرين قد تلحقها ستة أحرف تتفرع عنها حتى تكون خمسة وثلاثين حرفا، وهذه الستة حسنة يؤخذ بها في القرآن وفصيح الكلام وهي النون الخفيفة ويقال الخفية، والهمزة المخففة، وألف التفخيم، وألف الإمالة والشين التي كالجيم، والصاد التي كالزاي، وقد تلحق بعد ذلك ثمانية أحرف، وهي فروع غير مستحسنة ولا يؤخذ بها في القرآن ولا في الشعر ولا تكاد توجد إلا في لغة ضعيفة مرذولة غير متقبلة...»[34]

7.الصفات: أما المرتكز الصوتي الثاني فهو صفات الصوت (The manner of articulation) وهو الملمح الصوتي الذي يفرز اختلافات صوتية تجعل الصوت يلبس لبوسا يختلف فيه مع غيره من الأصوات كحضور قيمة الجهر في الصوت أو غيابها مما ينشأ عنه صوت الزاي المجهور مقابلا لصوت السين المهموس مثلا، وهكذا مع كل صوت وما يحمله من ملامح تمييزية"distinctive features" «اعلم أن للحروف في اختلاف أجناسها انقسامات نحن نذكرها، فمن ذلك انقسامها في الجهر والهمس، وهي على ضربين مجهور ومهموس... »[35]. وهكذا مضى ابن جني في تتبع وبيان صفات الأصوات من شدة، ورخاوة، وإطباق وانفتاح واستعلاء، وانخفاض، وصحة، واعتلال وانحراف، وتكرار، وإذلاق، وإصمات...فهذه الصفات التي تصاحب الحدث الصوتي تتضمن ملامح تمييزية تحدث فروقا وظيفية بين صوت وصوت في السلسة الكلامية، كالفرق بين السين والزاي في: "سال" و "زال" و "أزَّ" "هزَّ" والفرق بين الدال والطاء في: "قدَّ" و "قطَّ" والفرق بين الحا والخاء في: "نضح" و"نضخ" ونحو ذلك.

8.المنحى الوظيفي: (phonological aspect) يعد هذا الاتجاه الصوتي من مباحث الدرس الصوتي الحديث الذي يصطلح عليه علم وظائف الأصوات أو تشكيل الأصوات أو الفنولوجيا الذي يهتم بدراسة الصوت اللغوي ضمن سياقه وبيان ما قد يحدث للصوت من تشكلات صوتية في السلسلة المنطوقة، كمظاهر الإدغام، والإخفاء، والإعلال، والمد، والنبر، والتنغيم ونحو ذلك أما ابن جنى فقد كانت له إشارات وظيفية بين فيها الإمكانات الصوتية التي تسمح بها اللغة العربية، وقد ألمح في بعض مقولاته في آخر المقدمة إلى هذا النوع من التشكيل الصوتي وقد اصطلح عليه بـ"التأليف": « اعلم أن هذه الحروف كلما تباعدت في التأليف كانت أحسن، وإذا تقارب الحرفان في مخرجيهما قبح اجتماعهما، ولا سيما حروف الحلق»[36]. لكن تجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن ابن جنى عقد فصلا في الجزء الثاني أشار فيه إلى مذهب العرب في مزج الحروف بعضها ببعض وما يجوز من ذلك وما يمتنع وما يحسن وما يقبح وما يصح[37]. وفي هذا

الفصل عاود الحديث عما اصطلح عليه بالتأليف معتمدا في ذلك على التجريب والتمثيل بما يظهر له من تشكل للأصوات ضمن سياقات مختلفة، فهو يعتمد في ذلك على معيار تقارب المخارج أو بعدها وعلى مواضعها في السلسلة المنطوقة، إذ يقول: «وأحسن التأليف ما بوعد فيه بين الحروف، فمتى تجاور مخرجا الحرفين فالقياس ألا يأتلفا، وإن تجشموا ذلك بدأوا بالأقوى من الحرفين، وذلك نحو "أُرُل" و "وَرَل" و "وتَد"... فبدأوا بالراء قبل اللام وبالتاء قبل الدال، لأنهما أقوى منهما»[38]، وهكذا سار ابن جني في هذا المبحث على طريق الملاحظة والتجريب واختبار المواطن التي يحسن فيها التأليف أو يقبح معتمدا في ذلك على ما نطقت به العرب من ذلك ما مثل به في قوله: «أو لا ترى أن الشين لا تؤلف مع الضاد لما بينهما من التجاور والاستطالة (...) وحروف الصفير وهي الصاد، والسين ،والزاي، لا يتركب بعضها مع بعض ليس في الكلام مثل "سَصَّ" ولا "صَسَّ" ولا "زَسَّ" ولا زَصَّ" ولا "صَزَّ" وكذلك الطاء، والدال، والتاء لا يتركبن إلا أن تتقدم الطاء، والتاء على الدال، نحو "وَتِد" و "مِحْتَدٍ" و"وَطَدَ" وكذلك الظاء والذال والثاء »[39]

9.خاتمة:ظهر الدرس اللغوي عامة والدرس الصوتي خاصة في رحاب التحول الفكري والحضاري الذي أحدثة القرآن الكريم في مناحٍ مختلفة، فكان من نتائج ذلك أن ظهر في الأفق أعلام الفكر اللغوي كالخليل، وسيبويه، وابن جنى الذي درس اللغة في مختلف مستوياتها، فكان منها بحثه للأصوات في كتابه الخصائص وسر صناعة الإعراب الذي عرض فيه لأهم القضايا الصوتية في بعديها الفونولوجي والفونتيكي، وقد كان معتمده في ذلك التجريب والملاحظة من خلال ما نطقت به العرب في كلامها ومن ثم فقد جاءت نتائج بحثه متطابقة إلى حد ما مع نتائج البحث الصوتي في الدرس اللساني الحديث إلا أن التطور في العلوم اللسانية مكن المحدثين من استغلال الوسائل المادية في الكشف عن جوانب صوتية فيزيائية أو فيزيولوجية أو وظيفية لم نجد لها بحثا كافيا في التراث اللساني العربي كمبحث التنغيم والنبر وضبط بعض المفاهيم الصوتية كالجهر والهمس ونحو ذلك.

10.قائمة المصادر و المراجع

1.1الأنطاكي (محمد)، المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، دار الشرق العربي، بيروت، ط4.

2.أنيس (إبراهيم)، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، دون رقم ط،2010.

3.بشر (كمال)، علم الأصوات، دار غريب، القاهرة، دون رقم ط، 2000.

4.جاكلين فيسيار، الصوتيات، ترحمة: بسام بركة، روز الكلش، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت،2013.

5.ابن الجزري (محمد بن محمد)،النشر في القراءات العشر ، تحقيق: علي محمد الضباع،دار الكتب العلمية دون ط

6.ابن جني(أبو الفتح عثمان)، سر صناعة الإعراب، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل وأحمد رشدي شحاتة عامر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2000.

7.شاهين(عبد الصبور)، المنهج الصوتي للبنية العربية رؤية جديدة في الصرف العربي، مؤسسة الرسالة، سوريا، دون ط.

8.ابن فارس (أحمد) معجم مقاييس اللغة تحقيق: دار الجيل، بيروت، دون ط.

9.نور الدين(عصام)، علم الأصوات اللغوية، الفونولوجيا، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1992/1.

10 Jean Cantineau, cours de phonétique arabe, librairie G.klingsieck, Paris1960.

11.هوامش

1البرهان في أصول الفقه، تحقيق: عبد العظيم محمود الديب، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط4، 1979ج1/ص130

2 ابن الجزري ، النشر في القراءات العشر ، تحقيق: علي محمد الضباع،دار الكتب العلمية دون ط، ج1/ص211

3 ينظر: مقدمة المحقق، ابن جني، سر صناعة الإعراب، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل وأحمد رشدي شحاتة عامر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط2000،ج1/ص3.

4 ينظر: عصام نور الدين، علم الأصوات اللغوية، الفونولوجيا دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1992/1، ص231.

5 ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1/ص19.

6 نفس المصدر، ص19.

7 Voir :Jean Cantineau, cours de phonétique arabe,librairie G.klingsieck, Paris1960,p13.

8 ابن جني، سر صناعة الإعراب،ج1، ص 20.

9 كمال بشر، علم الأصوات، دار غريب، القاهرة، دون رقم ط، 2000، ص160.

10 ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1، ص21

11 محمد الأنطاكي، المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها،دار الشرق العربي،بيروت، ط4، ج1،ص14.

12 ابن جني سر صناعة الإعراب، ج 1ص21.

13 نفس المصدر، ج1، ص22/21

14 إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية،مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، دون رقم ط،2010، ص145.

15 جاكلين فيسيار، الصوتيات، ترحمة: بسام بركة، روز الكلش مركز دراسات الوحدة العربية، ، ط1، بيروت،2013، ص96/95

16 الحركة: الحاء، والراء، والكاف أصل واحد، فالحركة ضد السكون، ابن فارس معجم مقاييس اللغة تحقيق: دار الجيل، بيروت، دون ط، ج2، ص45. أما السكون: "سكن" السين، والكاف، والنون أصل واحد مطَّرد يدل على خلاف الاضطراب والحركة، يقال: سكن الشيء يسكن سكونا فهو ساكن ابن فارس، معجم مقاييس اللغة ، ج3، ص 88.

17 ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1، ص33.

18 نفس المصدر،ج1، ص34/33.

19 نفس المصدر، ج1، ص34.

20 نشير إلى أن الرمز (c) يرمز إلى الصامت و (v) يرمز إلى الصائت

21 عبد الصبور شاهين، المنهج الصوتي للبنية العربية رؤية في الصرف العربي، مؤسسة الرسالة، سوريا، دون ط، ص40.

22 ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1، ص42.

23 نفس المصدر، ج1، ص42.

24 ينظر: عبد الصبور شاهين ، المنهج الصوتي للبنية العربية رؤية جديدة في الصرف العربي ص 27 ومابعدها.

25 ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1،ص42

26 نفس المصدر، ج1/ص43.

27 يعد الإدغام من مباحث الفونولجيا التي تهتم بدراسة الصوت اللغوي وما يحدث له من أوضاع نطقية جديدة تحصل بسبب المجاورة، كالإدغام، والقلب، والإخفاء، والإعلال، والإبدال، والحذف، ونحو ذلك، ويعرف الإدغام بأنه إدخال الساكن في المتحرك بحيث يصيران حرفا واحدا مشددا، وقد يكون الإدغام في كلمة واحدة نحو قطَّع وكسَّر، أو بين كلمتين نحو: من يعمل، بل ران على قلوبهم

28 ابن جني ، سر صناعة الإعراب، ج1/ص43.

29 ينظر عبد الصبور شاهين، المنهج الصوتي للبنية العربية رؤية جديدة في الصرف العربي، ص41.

30 جاكلين فيسيار، الصوتيات،2013 ، ص 105/104

31 ابن جني، سر صناعة الإعراب،ج1، ص59.

32 ينظر: نفس المصدر، ج1، ص59.

33 ينظر: نفس المصدر، ج1/ ص 59 وما بعدها

34 نفس المصدر، ج1/ ص 59

35 نفس المصدر، ج1/ ص 75

36 نفس المصدر، ج1/ ص79

37 ينظر: نفس المصدر، ج2/ ص427

38 نفس المصدر، ج2/ص429

39 نفس المصدر، ج2/ ص 432